

الدرس النحوي في ألفية ابن معطي - منهج يقارب الحداثة وأصول لا تـضمحل

The grammatical lesson in “Alfiyya” Ibn Mu‘fīAmoden and traditional – based approach

فطيمة الزهرة سي عبد الله

المركز الجامعي (سي الحواس) بركة، الجزائر

amalifillahcibir@gmail.com

عمار لعويجي*

المركز الجامعي (سي الحواس) بركة، الجزائر

ammar.laoudji@cu-barika.dz

ملخص	معلومات المقال
ابن معط الزواوي البجائي، من علماء اللغة الجزائريين الذين شهد لهم التاريخ بالرصيد الزاخر، والأثر البالغ في اللغة والنحو، لما تركه من متون وشروحات في مختلف العلوم، تيسيرا منه لطلبة العلم على البحث والإفادة ودفعهم للانتفاع والاستزادة، معتمدا في ذلك اللغة البيّنة. لذا جاءت هذه الدراسة لبيان براعة ابن معطي في نظمه للألفية، آخذا بيد الناشئة الفتية من أبواب عقولها وميزان إدراكها ليكبروا على هذا النحو ويألفوا هذه السليقة، والمنهج الواعي الذي سلكه في عرض مادتها. ليجعلها مصدرا وثيقا لطلبة العلم والدارسين اليوم.	تاريخ الارسال: 2024/08/09
	تاريخ القبول: 2024/12/29
	الكلمات المفتاحية: ابن معط ✓ الألفية ✓ المنهج ✓
<i>Abstract :</i>	<i>Article info</i>
<i>One of the Algerian linguists whose contributions to language and</i>	<i>Received</i>

09/08/2024

Accepted

29/12/2024

Keywords:

- ✓ Ibn Mu'aatī
- ✓ Alfīyya
- ✓ Approach

مقدمة:

حاز ابن معطي فضل السبق بنظمه للألفية المعروفة بـ "الدرة الألفية في علم العربية"، ونال شرف الريادة في مثل هذا النظم، حيث حوى فيها ما ينيف على الألف بيت، خصيصاً لطلبة العلم، ليسهل لهم بذلك فهم قواعد اللغة العربية، ويعينهم على تذكرها، في قالب فريد، ومنهج حكيم، ضمّنه مواضيع النحو المهمة وبعض الصّرف والإملاء الذي غفل عنه الكثيرون في منظوماتهم، صاغها بأسلوب متميّز وطريقة سهلة ليحبّها لهم ويرغبهم في الاستزادة منها.

لقد حظيت الألفية بإقبال كبير، والتفاف للنّاس حولها لتدارسها، وزكّاها علماء كبار على مرّ السنين، لكن حظّ الكتاب من حظّ مؤلّفه، فلظروف لا نعلمها، حالت دون شهرتها وذاع غيرها على حسابها، ورغم ذلك لم ينقص هذا من قيمتها، والتفت إليها مجموعة من النحويين الثّقة وتناولوها بالشرح والدّراسة، وشهدوا له بثناء المحتوى والأسبقية والفضل والأحقّية، وأنّ من جاء بعدها كان مقلّداً أو تابعاً، أو حتّى مغيّراً، معتمداً عليها في تطوير منهجه وتحسين نظمه. وأمام هذا التّمييز تواجها إشكالية نطرحها لهذه الدّراسة وهي: بم تميّز الدرس النحوي في الألفية لوسم صاحبها بالإبداع والتفّن؟ وهل يقارب منهجه فيها المناهج التعليميّة الحديثة؟

وللإجابة عن هذه الإشكالية؛ تمّ اتباع المنهج الوصفي التحليلي بدايةً للتعريف بالألفية والشّروحات التي أقيمت حولها، ثم لعرض أهم خصائص منهج ابن معطي فيها ومدى مقارنته لمناهجنا اليوم، وختم ذلك بتوصيات للإفادة من هذا الإرث النفيس وإعطائه حقّه ضمن التّراث الوطني الأصيل.

1. التعريف بالألفية:

هي منظومة تعليمية نحوية، عرفت من خلال ألفية جاءت بعدها وهي ألفية ابن مالك حيث ذكرها في بداية نظمه مثنيا عليها ومعتزلاً بأسبقيتها فقال (السيوطي، 2000، ص 22):

وتقتضي رضا بغير سخط فائقة ألفية ابن معط
وهو بسبق حائز تفضيلاً مستوجب ثنائي الجميلاً
والله يقضي بهيات وافرة لي وله في درجات الآخرة

الدرس النحوي في ألفية ابن معطي - منهج يقارب الحداثة وأصول لا تضحل

سمّاها صاحبها بـ"الدّرة الألفية" وهو أوّل من استعمل هذا الاسم (ابن معطي، 1972، ص 48) حيث قال في ختامها:

تحويه أشعارهم المروية هذا تمام الدّرة الألفية

لقد جاءت الألفية في (1021) بيتاً، وإذا استثنينا المقدمة والخاتمة يبقى (1002) ألف وبيتان في عرض مسائلها،

مقسمة في (33) باباً مجملاً، تحته ما يقارب التسعين موضوعاً متفرعاً.

وكما تفرّد ابن المعطي في تسمية نظمه تفرّد كذلك في صياغتها على بحرین (الرجز والسّريع) وهو ما لم يعهده النّاس

في النّظم، وكان دليلاً له على قوّة حسّه وسعة تمكنه (ابن معطي، 1972، ص 34).

2. شهرتها:

لقد لاقت الألفية قبولًا واسعًا وتقديرًا من علماء اللغة والنحويين، وشهدوا بتفرداها وعلم صاحبها وذكرها المؤرخون في كتبهم، وتناولها بعضهم بالدراسة والشرح.

ومن هذه المصادر:

- أ. كتب النحو: مثل الهمع، الأشباه والنظائر، المغني، شرح ابن عقيل... الخ
- ب. كتب التراجم: وفيات الأعيان، شذرات الذهب، تاريخ ابن الوردي، تاريخ أبي الفدا.. إلخ
- ج. شروحا للألفية: أقيمت شروح كثيرة حول الألفية من بينها (الشوملي، 1985، ص ص 68-70):
1. شرح أحمد بن الخباز الإربلي الموصلي النحوي الضير (ت637هـ).
2. التعليقات الوفية بشرح الدرة الألفية لمحمد أبو بكر الوائلي البكري الأندلسي الشريشي (ت685هـ).
3. شرح عز الدين أبو قرشت المعروف بسعفس المراغي النحوي (ت666هـ).
4. شرح ابن النحوية محمد بن يعقوب الدمشقي (ت817هـ).
5. شرح شهاب الدين المرداوي الصالحي المقدسي (ت827هـ).
6. شرح أحمد بن يوسف بن مالك الرعينيا لألبيري (ت977هـ).
7. شرح عبد المطلب الجزري (ت537هـ).
8. ضوء الدرة لعمر بن مظفر بن الوردي الحلبي الشافعي (ت946هـ).
9. شرح محمد بن جابر الأندلسي الهواري المالكي (ت780هـ).
10. شرح محمد بن أحمد البابر تي الحنفي أكمل الدين (ت786هـ).
11. شرح يوسف أبو الحسن الحموي الشافعي (ت809هـ).
12. شرح تقي الدين بن ثابت الطائي.
13. شرح عز الدين بن جمعة بن زيد القواس الموصلي (ت696هـ).

وهذه الشروحات الكثيرة ماهي إلا دليل على جودتها والاعتراف بقيمتها عند علماء اللغة من مختلف الأقطار.

3. خصائص منهج ابن معطي من خلال الألفية:

لقد تميّز منهج ابن معطي في نظمه للألفية بخصائص تضمن تفرده، وميزات يركّز إليها رجال العلم، نوجز أهمها في النقاط التالية:

1.3 الطابع التعليقي:

الدرس النحوي في ألفية ابن معطي - منهج يقارب الحداثة وأصول لا تضحل

تميّز نظم ابن معطي للألفية بطابعه التعليمي غاية ومنهجًا، فالغاية أن أفصح عنها في بداية النظم بقوله (ابن معطي، 2010، ص 17):

وذا حدا إخوان صدق لي على أن اقتضوا مني لهم أن أجعل
أرجوزة وجيزة في النحو عدتها ألف خلت من حشو

وكأنه لبي نداء تلاميذه وطلاب العلم أذاك، ليجعل لهم هذا المؤلف المختصر، يخلصهم فيه من كثرة دروس النحو، وتشعب مواضيعه، وينقذهم من سرعة تفلت قواعده، لذلك سلك منهجًا تعليميًا في عرض مواضيعها، فذكر الأبواب المهمة وجانب التفصيل والاسترسال. وهذا سبيل المناهج الحديثة والكتب التعليمية المعاصرة، حيث أصبح النحو فيها مختصرا يقتصر على المواضيع الأساسية المهمة، لإصلاح لسان المتعلم، وتحسين لغته، وهي مواضيع تتوخى البساطة والوضوح، قابلة للتدريس، وفق معايير نفسية وتربوية تناسب المبتدئ لتهذيب لغته والمتقدم لتقييد علمه، وكلاهما لإرساء قاعدة صحيحة وسليقة سليمة.

2.3 فلسفته التربوية:

ابن معطي إمام مبرز، ورجل علم ولغة عرف في زمانه بمجالس العلم والتدريس، والتفاف الناس حوله، عالمٌ بكتاب الله وحديث رسوله ﷺ حافظ للشعر، بارع فيه، لذا كان حريصا على نقل هذه القيم الدينية والمبادئ التربوية من خلال دروسه وما تركه لتلاميذه، وحثهم على بذل الجهد في طلب العلم النافع، لأن العلم: "الذي تقوم على أساسه الحياة الراشدة، الفاضلة، هو الذي يقوم على دعائم صحيحة مستمدة من الخالق وتنسجم مع حقائق وتكوين الإنسان الفطري والقوانين التي تنظم الكون والحياة" (الكيلاني، 1986، ص 92). ولأن أكثر ما برع فيه النحو، فقد جعل ألفيته وسيلة تربوية إلى جانب قيمتها العلمية، وحاول بث القيم الإسلامية والمبادئ التربوية، فاستشهد، ومثل واستعار التعابير اللازمة من النصوص الأصيلة ليقربها من المتعلم، فإن فهم المتعلم القاعدة وطبقها على هذه النصوص زاد وضوحها، وتبين مغزاها وقوي فهمه واتسع إدراكه ورسخ محفوظه (الشوملي، 1985، ص 85)، لتصبح لسان صدق يحتذى به، وحجة يعتد بها، ومثال ذلك ما جاء في مقدمة النظم (ابن معطي، 2010، ص 17):

الحمد الذي هدانا بأحمد دينًا له ارتضانا
فلم يزل ينحى به الإسلام حتى استبانت للهدى أعلام
مؤيدا منه بخير الكتب وحيًا إليه بلسان عربي
لكونه أشرف ما به نطق كما الرسول خير مخلوق خلق
صلى عليه الله ثم سلّمنا وآله وصحبه وكرّمنا
وبعد فالعلم جليل القدر وفي قليله نفاذ العمر

فهذه مقدمة توحى باعتزاز ابن معطي بالدين الإسلامي كتابًا وسنة، وباللغة العربية لسانًا وعلمًا، وبحثه على العلم وبذل

الجهد والعمر فيه لأنه سبيل الفلاح والهدى والصّلاح.

3.3 الشعر التعليمي:

إنَّ السبب وراء نظم ابن معطي للشعر التعليمي هو نفسه الذي أدَّى إلى اتساع دائرة النظم في عصره، في مختلف العلوم، فكلهم يسعى لحفظها من الضياع، وتسهيل عملية تعليمها، باختصار أصولها وقواعدها؛ تبسيطاً منهم للمتعلمين ودفعاً للملل والنفور منها، "ولمَّا كان العربُ أكثر براعة في الشعر، وظَّفوه لهذا الغرض كآلية مناسبة آنئذٍ مثلما توظَّف اليوم آليات المعلوماتية والالكترونيات والحواسيب مما فيها من سلبيات وإيجابيات للبحث وطلب العلم والتعليم أيضاً" (خلوفي، 2011، ص 187). وابن معطي يؤكد استعماله كوسيلة مساعدة للتعليم بقوله (ابن معطي، 2010، ص 17):

لعلمهم بأنَّ حفظ النظم وفق الذكي والبعيد الفهم

لاسيما مشطور بحر الرجز إذ بني على ازدواج موجز

أو ما يضاهيه من السَّريع مزدوج الشطور كالتصرُّع

حيث يشير إلى أن العرب في وقته، وطلبة العلم خصوصاً، يرون أن الشعر أسهل تناوُلًا، وأسرع حفظًا على الذكي المستطيع، وعلى المتأخر البطيء، فكلاهما يفضلُه لرقَّة موسيقاه، واستمالتها للنفس، فاستغلوا بذلك طبيعة الشعر، للتَّغيب في محتواه. ولم يقف ابن المعطي عند ذلك بل صاغ شعره من بحرین الرجز والسَّريع، وهذا ما لم يألفه النَّاس وقال عنه ابن القواس أحد شراح الألفية "واعلم أن الطريقة التي سلكها يحي لم يسلكها العرب، إذ ليس في نظمها قصيدة من بحرین" (النيلي، 1419هـ، ص 17). وما هذه القدرة على التحكم في البحرین ودمجهما إلَّا دليل براعة للمؤلف وقوة لحسِّه الموسيقي، لأنَّ البحران متقاربان جدًّا، ويصعب التفريق بينهما، حيث أن تفاعيل شطور الرجز هي:

مستفعلن مستفعلن مستفعلن

وتفاعيل شطور السَّريع هي:

مستفعلن مستفعلن مفعولات

فهي متشابهة ولا تختلف إلَّا في الوند. لهذا لا ينتبه لها إلَّا الحذيق. ولعلَّ اختيار هذا الشكل الجديد في النظم "كان من العقبات التي أثَّرت على انتشار واشتهار ألفية ابن معطي، فالبحر السَّريع من أثقل البحور الشعريَّة، لما يدخله من زحافات وعلل" (الشوملي، 1985، ص 68). ورغم هذا حظيت بإقبال الدَّارسين وطلاب العلم عليها حتَّى أن ابن مالك صاحب أشهر ألفية درَّسها لطلابه وأفاد منها في نظمِه (الشوملي، 1985، ص 76).

4.3 التدرج:

ابن معطي عالم حذق واسع المعرفة، تدرَّج في عرض موضوعات الألفية لأنَّها موجَّهة للمبتدئين خاصة، حيث اعتمد "نظام التَّعميم ثمَّ التخصيص" ففي تعرض لأنواع الكلام الثلاثة من إسم أو فعل أو حرف ثمَّ تعود لكل واحد منها بالتفصيل وذكر الجزئيات" (الشوملي، 1985، ص 143). وانتقل فيها من البسيط إلى المعقد ومن العام إلى الخاص وربط السَّابق باللاحق، وهذا في جميع مسائلها وبدأ بالأكثر أهمية لخلق قاعدة سليمة يصحَّ البناء عليها على حدِّ قوله (ابن معطي، 2010، ص 17):

الدرس النحوي في ألفية ابن معطي - منهج يقارب الحداثة وأصول لا تضمحل

فأبدأ بالأهم فالأهم فالحازم البادئ فيما يستتم
فإن من يتقن بعض الفن يضطر للباقي ولا يستغي

ولأن ما قام به ابن معطي هو الأساس الذي يقوم عليه كل منهج تعليمي، فإننا نجد من علماء اللغة والفلسفة والمنظرين من يؤكد عليه كإبن خلدون إذ يقول "إعلم أن تلقين العلوم للمتعلمين، إنما يكون مفيداً، إذا كان على التدرج شيئاً فشيئاً، وقليلًا قليلًا" (ابن خلدون، د ت، ص 502). فالتبصر والتعقل في الأخذ بالعلم أمر لا بد منه لامتلاك فنونه، وكذا عند علماء اللغة المحدثين نجد صالح بلعيد ينبّه عليه في دراسة قواعد النحو بقوله "إن التنقل من بنية أصلية إلى ما يتفرّع عنها والعكس هو الذي ينبغي أن تكون عليه الممارسة في الجانب النحوي، ويفضّل أن يجرى ذلك بالإعتماد على نصوصٍ مخصّصة لذلك" (بلعيد، 2013، ص 25).

إلى جانب التدرج في عرض مسائل النحو، راعى ابن المعطي التدرج في تنمية المهارات اللغوية لدى المتعلّم بدءًا من سماعه المتن من معلّمه إلى التدريب على قراءته وفهمه وتحليل قواعده والتّمثيل بشواهد إلى استثمار تلك القواعد في حديثه وإنتاجه الكتابي. وهذه أهم المهارات اللغوية (الاستماع، القراءة، التواصل، الكتابة) التي تسعى المناهج التعليمية الحديثة إلى إكسابها للمتعلمين من خلال تدريس اللغة العربية (حثروبي، 2012، ص 138).

5.3 الشّمولية:

شملت الألفية موضوعات كثيرة في مختلف فروع اللغة العربية وهي: النحو والصّرف والخط والكتابة والعروض وعلم الأصوات. ولكونها شعرًا "جاءت الأبواب فيما مقفلة، والفروع الدّاخلية تحتها مجملة، فقارّها إن كان مبتدئًا محتاجًا إلى فتح تلك الأبواب وضبطها، وإن كان شاديا متشوّقًا إلى تفريغ تلك الفصول وبسطها" (النيلي، 1419، ص 19). فالمتعلم منها يحتاج معلمًا يشرح ويبسّط له القواعد ويدرّبه عليها والدّارس لها، يجدها المادة الخصبة، والسّاحة الرّحبة لعلم العربية، يخوض فيها ويحلّل فصولها ويبين التفصيل فيها. فهي منظومة تعليمية شاملة يجد فيها المتعلم ضالّته لإصلاح لسانه وتحسين خطابه وتكوين سليقة سليمة. ولقد شهد لها علماء اللغة بسعتها وغناها فكانوا يدعون طلاب العلم للأخذ بها، وهذا جعفر الغرناطي (ت779هـ) يقول عنها (الأتابكي، 1932، ص 198):

يا طالب العلم ذو اجتهاد تسمو بالورى وتحيا
إن شئت نيل المراد فاقصد أرجوزة للإمام يحي

كما جاء في الدّرر (العسقلاني، 1993، ص 170) أن مالكا نفسه كان يقرؤها لتلاميذه، وأن بعض طلبة العلم أخذها عن الشيخ شمي الدين المعيد المعروف بإبن عائشة (العسقلاني، 1993، ص ص 43-44).

6.3 الأسلوب: تميز ابن معطي بأسلوبه الفريد عكس راحة عقله وسعة علمه وعذوبة لغته، فهو من المبدعين في النظم، ورغم أنّه نظّم الألفية وهو صاحب الحادية والثلاثين (الشوملي، 1985، ص 76). إلّا أنّ كبار العلماء

الدرس النحوي في ألفية ابن معطى - منهج يقارب الحداثة وأصول لا تضحل

والنحويين شهدوا له بالبراعة والإحكام في صياغة قواعدها منهم ابن الوردي الذي قال بأنها "شاهدة لناظمها بإصابة الصواب والتفنن في الآداب، حتى كأن سيبويه ذا الإعراب قال له يا يحي خذ

الكتاب" (الوردي، 1993، ص 154). والحق أن ابن المعطي اشتغل في الأدب والنحو درسا وتأليفاً، لذا كان حريصاً في اختيار الألفاظ ومناسبتها وجودة الصياغة وإحكامها. كما وصف المقرئ أسلوبه حين مقارنته لألفيته بألفية ابن مالك فقال " ونظمه أجمع وأوعب، ونظم ابن معطي أسلس وأعذب" (المقرئ، 1968، ص 232). ومن أمثلة جودة أسلوب الألفية وبراعة صياغتها قول صاحبها في باب الممنوع من الصرف (ابن معطي، 2010، ص 27):

وإن ترد قبيلة أو أمّا لم ينصرف كتغلب ولحما

كذا إذا أردت بالبلدان تأنيث تعريف كمن عمان

وقوله في باب الخط والكتابة (ابن معطي، 2010، ص 67):

والاسم والفعل بذا لا يختلفُ واكتب ذوات الواو كلاً بالألف

يبين أصله لك الخطابُ هذا عليه اصطلاح الكتاب

ومن سمات أسلوبه أيضاً خفة طرحه والتنوع فيه، فكان بين الفينة والفينة يثير فضول المتعلمين ويجلب انتباههم بمسائل تحمل ألغازاً يدفع بها عنهم الملل والفتور، وكأنه عالم نفس مدرك لطبيعة المادة وجفافها ومثال ذلك قوله في باب مالم يسم فاعله (ابن معطي، 2010، ص 34):

مسألة بها إمتحان النشأة أعطي بالمعطي به ألف مائة

وكسي المكسوف فرّوا جبة ونقص الموزون ألفاً حبة

وهذه من المسائل التي أوردها "لإمتحان النشأة وإفادة الرّياضة والتّدريب" (الشوملي، 1985، ص 625). ففي أسلوب ذكي يحتاجه كل معلم ومربي في مهمته، لأنّه يجمع بين التّشويق وحسن الصياغة وقوة المعنى.

7.3 الطريقة:

سلك ابن معطي طريقة تعليم في ألفيته هي أقرب إلى الطرق الحديثة في التدريس، حيث كان يستهل الأبواب بعناوين صريحة للموضوع الذي سيتطرق إليه، يريّئ بها نفسية المتعلّم ويتصدرها بلفظ (القول) ثم يصوغ عناوينها نظماً، ومثال ذلك في باب الإعراب والبناء قوله (ابن معطي، 2010، ص 19):

القول في الإعراب لبناء الأصل في الإعراب للأسماء

وكذا في باب الأسماء المعربة قوله (ابن معطي، 2010، ص 19):

القول في إعراب الاسم الواحد كل صحيح بإنصرف وارد

وبعد ذلك يعرف الظاهرة اللّغوية ويذكر خصائصها ومميزاتها أو فروعها وحالاتها مع التّمثيل لها ليقرب المتعلم من فهمها ويسهل له تطبيقها "وهذا يشابه إلى حدّ كبير الأساليب الحديثة في طرق التدريس حيث يبدأ الشارح بذكر القاعدة أو الموجز للموضوع ثمّ يبدأ بالتّفصيل" (الشوملي، 1985، ص 83). وهي أقرب ما تكون إلى الطريقة القياسية لأنّها تقوم على أساس "تقديم التعريف ثمّ إثبات مجموعة من الأمثلة التي ينطبق عليها التعريف، ومن ثمّ القياس عليها، مما يساعد على ترسيخ المفاهيم في أذهان المتعلمين، وتمكينهم من استحضارها في الوقت المناسب" (عباس جري، 2018، ص 155).

الدرس النحوي في ألفية ابن معطي - منهج يقارب الحداثة وأصول لا تضحل

وهي من الطرق القديمة التي لا يزال يُعملُ بها إلى اليوم لملاءمتها في عرض قواعد العلوم وأسسها.

8.3 المصطلحات:

إنَّ معظم المصطلحات التي احتوتها الألفية بعد الاطلاع عليها هي: الكلام/ اللَّفْظ/ الاسم/ الفعل/ الحرف/ زمان/ معنى/ الأمر/ النهي/ فضل/ علم/ مؤكِّدًا/ زائدًا/ عاملاً/ الأصل/ المصدر/ الإعراب/ البناء/ مقدَّر/ ظاهر/ الرَّفْع/ النَّصْب/ الجزم/ عله/ بين/ التنوين/ معتل/ مقصور/ الحركات/ منقوصًا/ مهموزًا/ تضاف/ لا يجوز/ مالم نصرف/ إبدال/ حتما/ التثنية/ العطف/ شذوذ/ المزيد/ مجموعًا/ الفتح/ الصَّرف/ مشبه/ مركب/ المعرفة/ النكرة/ الوصف/ اشتهر/ نوره/ حقيقي/ نسق/ بيان/ الأعلام/ الحاضر/ حال/ التخصيص/ عرض/ صحيح الآخر/ القسم/ المكان/ الماضي/ التَّقليل/ اضمرت/ تعتمد/ الإيهام/ المبتدأ/ الخبر/ الصفة/ التَّصدر/ تحذف/ التجديد/ الاستقبال/ الحاضر/ عرض/ واحذف/ توسطت/ المفردات/ فاعل/ مفعول/ به/ مفعول له/ فصلت/ التخيير/ مؤخرًا/ قف/ شبهها/ معمول/ الانتقال/ استعملوا/ ضعف/ النوع/ المحدود/ اشتمل/ مرخِّمًا/ التعدي/ اللزوم/ التضمن/ الأخير/ الاستفهام/ حروف النفي/ المستثنى/ يفترض/ فالأسبق.. إلخ

وهذه مصطلحات معروفة نتداولها في مدارسنا اليوم على مستوى الوطن العربي، وهي بصرية وقد طغت على المصطلحات الكوفية، والغرض من هذا الوصول إلى أنَّ ابن معطي لم يكن مبتدعاً ولم يخرج عن الغالب عند النحاة، فهو نقل في معظم الألفية مصطلحات لسبويه إمام النحاة وهذا ليس عيباً فمصطلحات هذه المدرسة أكثر عمقاً ودقة في التجسيد وهي المدرسة التي أرسلت دعائم النحو. وإن كان قد ورد له آراء اتبع فيها المدرسة الكوفية والبغدادية فهذا "لم يمنعه من مناقشتهم في بعض ما ذهبوا إليه، ممَّا يكشف عن ولائه للبصريين أو بالأحرى حريته في الأخذ والاختيار" (ابن معطي، 1972، ص 86).

ومثال ما اتَّبع فيه الكوفيين استعماله لمصطلح "الجدد" وهو استعمال كوفي للنفي، ومثل تسميته للصفة بالنَّعت " (ابن معطي، 1972، ص 80)، ومثله أنَّه "أجاز أن يقال (كذا دُهم) بالإضافة. وهذه متابعة صريحة لهم" (ابن معطي، 1972، ص 81).

أما بغداديته فتظهر في موافقته لبعض أعلام هذه المدرسة كأبو القاسم الزجاجي وأبو الفتح ابن جني، وأبو علي الفارسي (ابن معطي، 1972، ص 86).

9.3 التمثيل:

لأنَّ ضرب المثال أهم وسائل التعليم وبه تتضح الفكرة، ويتبين المقال، ولأنَّه الأسلوب الذي يبسط الفكرة ويجسدها، كان لزاماً العمل به في مناهج التعليم كلّها، والحرص كل الحرص على حسن اختياره ليناسب طبيعة المادة ونوعية المتعلِّم ومراعاة أن يكون قريباً من الواقع ليعيشه ويستطيع استثماره في توظيف تلك القواعد التي يتعلَّمها في خطابه (زايد واسماعيل عايز، 2014، ص 307).

الدرس النحوي في ألفية ابن معطي - منهج يقارب الحداثة وأصول لا تضمحل

وهذا ما نجده عند ابن معطي فلأنه شبَّ على التعلُّم، ومارس التَّعليم في سنٍّ مبكرة استعمل هذه الوسيلة وأطنب فيها فاستشهد بالقرآن الكريم إلى جانب كلام العرب شعراً وأمثالا في مواطن كثيرة، ومثَّل بالجميل والكلمات في مواطن أخرى، ومن استشهاده بالقرآن الكريم قوله في باب الحال (ابن معطي، 2010، ص 32):

وهذا نص من الآية 31 من سورة فاطر وهي كاملة "والذي أوحينا إليك من الكتب هو الحقِّ مصدَّقاً لما بين يديه إنَّ الله بعباده لخبير بصير".

وبالشعر قوله في باب الكلام على ربِّ (ابن معطي، 2010، ص 25):

وحيثما لها دليل باقيك قوله وقاتم الأعماق

وهذا الشَّاهد من قصيدة لرؤبة (الشوملي، 1985، ص 409) من بحر الرجز وتمامه:

وقاتم الأعماق خاوي المخترق مشتبهُ الأعلام لماع الخفق

ومن تمثيله بالجميل والكلمات قوله في باب إنَّ وأخواتها (ابن معطي، 2010، ص 47):

تقول: إنَّ خالدًا كريمٌ وليتَ بكرًا عندنا مقيمٌ

لقد بلغَ مجمل ما استشهد ابن معطي في ألفيته (31) مرة بالقرآن الكريم، و(33) مرَّة بالشَّعر و(6) مرات بأمثال العرب و(23) مرَّة بأسماء القبائل والبلدان وما يربُّو عن (737) مثالا عاما، ولعلَّ هذا العدد الكبير والتَّمثيل الوفير ما هو إلَّا دليل على حرص ابن معطي على تحقيق الغاية من تعليم قواعد اللُّغة ؛ وهي تعويد لسان المتعلم عليها وتهذيب لغته وليس فقط حفظها وتكرارها فهو يعلم أنَّها ليست غاية في ذاتها وإنَّما وسيلة يتدرَّب عليها ليمتلك المهارات اللُّغوية التي تؤهله لقراءة وفهم وبناء نصوصٍ من تلقاء نفسه ليصبح ذلك لديه طبيعة مسجاة وفطرة مكتسبة يثبَّتْها.

وإلى جانب الاستشهاد لتوضيح مسائل النحو استعمل ابن معطي التَّعليل وهو من أهم مبادئ التعليم في مواضع كثيرة، حيث يبرز السَّبب أو العلة من الحكم أو ضدَّه ليضفي عليه المنطق والرجحان ويؤجِّد القبول عند المتعلم، بما يناسب عقله، فيزداد الأمر وضوحا ويسهل استيعابه به لتلك القواعد، ومثال ذلك قوله في باب الأسماء المعربة (ابن معطي، 2010، ص 19):

وإن يكن ياءٌ وكسرٌ قبله سبي منقوصًا لنقص حلّه

ويقصد بذلك أن الاسم المنقوص ما سبَّيَ بذلك إلَّا لقصور له في أمرين: "أحدهما لنقصان ما يستحقه من ظهور علامات الرِّفع والجرِّ، والثاني لنقصانه بحذف لامه مع نقصان ماله من حركتي الرِّفع والجرِّ" (الشوملي، 1985، ص 245). وما هذه الكثرة في الاستشهاد ومناسبته وقوة التَّعليل ورجاحته إلَّا دليل على سعة علم ناظمها، وإحاطته بالمادة، وموهبته الفذة في سبُل الإقناع وطرق التدريس عموما.

10.3 الاختصار:

هو أسلوب تعليمي غايته الحفاظ على المحتوى المهم في المادة القليلة، ويلجأ إليه أصحاب الكتب التعليمية وواضعوا المناهج التربوية بهدف ربح الوقت وتوجيه الهدف والتَّخلص من الاسترسال والتَّعقيد الذي ينفر منه المتعلمون. ويخدم هذا

الدرس النحوي في ألفية ابن معطي - منهج يقارب الحداثة وأصول لا تضحل

الأسلوب مبدأ التدرج بتناول المهم في كل مرة وعرضه بأوجز عبارة وأقصر طريقة، فَيَتَجَنَّبُ بذلك تزاخم المعلومات وكثرتها في موضوع واحد. وقد استعمل ابن معطي هذا الأسلوب في جل مواضع وأبواب الألفية حتى أنه وصفها بـ "الأرجوزة الوجيزة في بداية نظمه كما سبق وذكر، وفي نهايتها" بقوله (ابن معطي، 2010، ص 38):

نظمها يحي بن معطي المغربي تذكرة وجيزة للمغرب

ووصفها أشهر شراح المنظومات ابن الخباز بقوله "فلقد حاز قصب السبق، حيث جمع بين اللفظ القليل، والمعنى الكثير، وكيف لا وقد كان نسيج نفسه" (ابن معطي، 1972، ص 86).

ومن أمثلة ذلك أنه يجمع الأجزاء المتشابهة في موضوع واحد كحصره لأوزان الرباعي في بيت واحد وصياغتها على كلمات ليتجنب المتعلم الخلط بينهما ويسهل له حفظها وهي في قوله (ابن معطي، 2010، ص 58):

وللرباعي قِمَطْرُ سَلْهَبُ وَزَبْرُجٌ وَدِرْهَمٌ وَجُحْدَبُ

أي أن أوزان الرباعي خمسة وهي (الشوملي، 1985، ص ص 1167-1168): فِعْلُلُ-فَعْلِلُ-فِعْلَلُ-فُعْلُلُ. وكذا في أوزان الخماسي بقوله (ابن معطي، 2010، ص 49):

وللخماسي جاء قِرْطَعَبٌ وَلَهُ سَفَرَجَلٌ جَحْمَرٌ شُقْدَعْمِلَةٌ

ويقصد أن للخماسي أربعة أوزان (الشوملي، 1985، ص ص 1169-1170): فِعْلَلُلُ-فَعْلَلُلُ-فُعْلَلُلُ-فُعْلَلُلُ

وكما أنه في كثير من الأحيان كان يستغني بالقاعدة فلا يمثل لها، أو يشرك بعضها في مثال واحد لتشابه حالاتها، أو تقارب أحكامها، تخفيفاً على المتعلم وتيسيراً للمادة (لعويجي، 2021، 489).

إن هذه القدرة على جمع المادة واختصارها بأيسر الطرق ميزة تفضل بها على كثير من المصنفين واعترف بها شراح نظمه كابن الخباز الذي يقول فيها: "إنه ليس فيها فضلة كما فعل الحريري في ملحته، فإنه كان يذكر نصف بيت أو ثلثه من غير فائدة تتميماً للوزن" (ابن معطي، 1972، ص 38). وما هذا إلا دليل آخر على نباعة هذا العالم الكبير وسمة بارزة لا يغفل عنها كل مريد.

4. قيمتها العلمية:

تعد ألفية ابن معطي أول منظومة كبيرة في النحو (ابن معطي، 1972، ص 36)، نظمها وهو العالم والإمام المبرز والشاعر المتمرس (السيوطي، 1997، ص 437)، تحلق حوله الناس طلباً لعلمه وشرحه للألفية وأقرأها معاصروه ومن جاء بعدهم لتلاميذهم، زاخرة بعلوم العربية شاملة لمواضيعها تُغني المتعلم عن غيرها، سهلة المذاق، جديرة الوفاق، قال عنها الشريشي: "هذه الأرجوزة البديعة شاهدة له بسعة العلم وجودة القريحة، إذ نظم فيها علم العربية نظم الجواهر في السلك وخلصها من الحشو تخليص الذهب عند السبك" (النيلي، 1419هـ، ص 16). ونظم فيها أبياتاً يقول فيها (النيلي، 1419هـ، ص 16):

الدرة المنظومة الألفية أجل ما في الكتب النحوية

لكونها في حجمها صغيرة جليلة في قدرها كبيرة

الدرس النحوي في ألفية ابن معطى - منهج يقارب الحداثة وأصول لا تضمحل

قد ضبطت أصول علم الأدب واختصرت ما في طوال الكتب

نظمها الشيخ الإمام يحيى فذكره يبقى بها ويحيى

على مرور الدهر والأعصار وحيثما حلت من الأمصار

فرحمة الله مع السلام عليه من علامة إمام

وصرح النيلي وهو أبرز شراحها في مقدمة شرحها بقوله: "وبعد فإني رأيت الأرجوزة الموسومة بالدرة الألفية دقيقة المعاني وثيقة القواعد والمباني... والتمس من طائفة من طلبة العلم تأليف شرح يوضح معناها، ويفصح عن معانيها ويطابق ألفاظها، ويغري بها حقّاظها، فأجبتهم إلى ذلك" (النيلي، 1419، ص 30).

فإن كان ذلك رأي شراحها وهم علماء في اللغة ولهم شروح ومصنّفات كثيرة غيرها، شهدوا لها بهذا الخير الجزيل والعلم الغزير، ولبوا طلب أهل العلم في دراستها وتفصيل أبوابها لتكون لهم الورد في علمهم والسبيل لقيدته، فاليوم تفتنّ لها الباحثون وأقيم تحولها دراسات كثيرة لا تعدّ ولا تحصى لعلمهم بأنها كنز دفين لم تسعفه الأيام ورزق وفير غاب عن أهله، ينتظر الجاد المجدّ لنيله.

خاتمة

ألفية ابن معطي أول منظومة تعليمية في علم العربية حاز فيها صاحبها فضل السبق والريادة شكلاً ومضموناً، فهي أكبر متن لهذا الغرض، شملت جلّ مواضيع هذا العلم، عرضها في شكل جديد يهدف تيسير القواعد، وتذليل صعوباتها وتخفيف محتواها وتليين جفافها، بأسلوب تعليمي يحيي الثوابت والقيم، وتهوئ النفس من النظم، متدرج هنيئة هنيئة، يرأف حال المبتدئ الصغير ويبني للرأسخ المتين، ملّمّ بكل ما يحتاجه في النحول سلامة لسانه وصحة خطابه، يوافق أرقى المناهج وأحدثها ولا يختلف عن أعمدها، يعين على الفهم بالاستدلال والتّمثيل، مختصر يدفع الملل والفتور، شهد لها القاصي والداني بقوة فحواها، وعمق مبناها ولا يسع كلّ باحث فيها، أو مطلع عليها إلّا التنبيه لها والخروج بتوصيات كما خرجت هذه الدراسة للعمل بها والبحث عليها وهي:

- أنّ المنظومة إرث ثقافي علمي جزائري أصيل، يجب الحفاظ عليها، ومعاملتها على هذا الأساس.
- تناول آثار هذا العالم بالدراسة والشرح والتّحقيق وتشجيع طلبة العلم على ذلك.
- إقامة ملتقيات وأيام دراسية للتّعريف به وكشف مصنّفاته.
- إفادة من مادة الألفية في تيسير النحول لمتعلّمي اليوم، وتقريبهم من النصوص الأصيلة واللغة الفصيحة وأصول المادة، لإعانتهم على حفظها وسرعة استحضارها وقوة تمثيلها، كل حسب مستواه ومرحلته التعليمية.
- الألفية وسيلة تعليمية كأي وسيلة تسهل عرض الدرس، ولأنّها شعر فهي أقرب إلى نفوس المتعلمين وأخفّ لحمل المادة.
- يعتمد استعمال المنظومات التعليمية والألفية خصوصاً على كفاءة المعلم وطريقة تقديمه، فهو المبسّط يفتح عُقدها والموجّه يسيّر مراحلها ويجعل منها وسيلة تعينه لتحقيق الهدف من تلك الدروس.
- لا ينتهي العالم بموته، ولكن بغياب أثره، ولا يحي بعيشه ولكن بوصول علمه، وابن معطي نسيج نفسه، قوي في علمه، فإن قيل أنّ لكل عالم غفوة، فالقول أنّ فضل السّابق على اللاحق أن يذكر الأثر ويشكر الدّرر وفي الأمر، ويغفر الزّلل ويصلح العثر، ويأتي الغير.